اللُّغةُ والدِّين والعادات(١)

باعتبارها من مقوِّمات الاستقلال

ليست حقيقةُ الأمَّة في هذا الظَّاهر ؛ الذي يبدو من شعبٍ مجتمعٍ ، محكومٍ بقوانينه وأوضاعه ؛ ولكن تلك الحقيقة هي الكائنُ الروحيُّ المكتنُّ في الشَّعب ، الخالصُ له من طبيعته ، المقصورُ عليه في تركيبه كعصير الشَّجرة ؛ لا يُرى عمله ، والشَّجرةُ كلُّها هي عمله .

وهذا الكائن الرُّوحيُّ هو الصُّورة الكبرى للنَّسب في ذوي الوشيجةِ(٢) من الأفراد ، بيدَ أنَّه يحقِّق في الشَّعب قرابة الصِّفات بعضها من بعض ؛ فيجعلُ للأمَّة شأن الأسرة ، ويخلق في الوطن معنى الدَّار ، ويوجد في الاختلاف نزعةَ التَّشابُه ، ويردُّ المتعدِّدَ إلى طبيعةِ الوحدة ، ويبدعُ للأمَّة شخصيتها المتميِّزة ، ويوجب لهذه الشَّخصيَّة بإزاءِ غيرها قانون التَّناصر ، والحميَّة ؛ إذ يجعلُ الخواطر مشتركةً ، والدَّواعي مستويةً ، والنَّوازعَ متآزرةً ، فتجمع الأمَّة كلُّها على الرأي : تتساند له بقواها ، ويشدُّ بعضها بعضاً فيه ؛ وبهذا كلِّه يكون روح الأمَّة قد وضَع في كلمة الأمَّة معناها .

والخُلُقُ القويُّ الَّذي يُنشئه للأمَّة كائنها الرُّوحيُّ ، هو المبادىء المنتزعة من أثر الدِّين ، والبلاغة ، والعادات ، وهو قانونٌ نافذٌ يستمدُّ قوَّته من نفسه ؛ إذ يعملُ في الحيِّز الباطنِ من وراء الشُّعور ، متسلِّطاً على الفكر ، مصرِّفاً لبواعث النفس ، فهو وحده الَّذي يملأ الحيَّ بنوعِ حياته ، وهو طابَع الزَّمن على الأمم ، وكأنَّه على التَّحقيق وضع الأجدادُ علامتهم الخاصَّة على ذرِّيتهم .

* * *

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة في عهد علي ماهر باشا سنة (١٩٣٦) ، وانظر « في النقد » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « الوشيجة » : القرابة المشتبكة المتصلة .

وأمَّا اللُّغة فهي صورة وجودِ الأمَّة بأفكارِها ، ومعانيها ، وحقائق نفوسها ، وجوداً متميِّزاً قائماً بخصائصه ، فهي قوميَّة الفكر ، تتَّحدُ بها الأمَّة في صور التَّفكير ، وأساليب أخذ المعنى من المادَّة . والدِّقَّة في تركيب اللُّغة دليلٌ على دقَّة المَلَكات في أهلها ، وعمقُها هو عُمقُ الرُّوح ، ودليل الحسِّ على ميل الأمَّة إلى التَّفكير ، والبحثِ في الأسباب والعِلل ، وكثرَةُ مشتقَّاتِها برهانٌ على نزعة الحرِّيَّة ، وطماحِها ، فإنَّ روح الاستعباد ضيِّقٌ لا يتَّسع ، ودأبه لزومُ الكلمةِ ، والكلماتِ القليلة .

وإذا كانت اللُّغة بهذه المنزلة ، وكانت أمَّتها حريصةً عليها ، ناهضةً بها ، متَّسعةً فيها ، مكبرةً شأنها ؛ فما يأتي ذلك إلا من روح التسلُّط في شعبها ، والمطابقةِ بين طبيعتِه وعمل طبيعته ، وكونِه سيِّد أمره ؛ ومحقِّق وجوده ، ومستعمِل قوَّته ، والآخذ بحقِّه ؛ فأمَّا إذا كان منه التَّراخي ، والإهمال ، وتركُ اللُّغة الطَّبيعيَّة السُّوقيَّة ، وإصغارُ أمرها ، وتهوينُ خطرِها ، وإيثارُ غيرها بالحبِّ ، والإكبار ؛ فهذا شعبٌ خادمٌ ، لا مخدومٌ ، تابعٌ ، لا متبوعٌ ، ضعيفٌ عن تكاليف السِّيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه ، مجتزئٌ ببعض حقِّه ، مكتفٍ بضرورات العيش ، يوضَع لحكمه القانونُ الَّذي أكثره للحرمان ، وأقلُّه للفائدة الَّتي هي كالحرمان .

لا جرم كانت لغة الأمَّة هي الهدفَ الأوَّل للمستعمرين ؛ فلن يتحوَّل الشَّعب أوَّلَ ما يتحوَّل إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحوُّل من أفكاره ، وعواطفه ، وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته ؛ انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميَّته صورةً محفوظةً في التَّاريخ ، لا صورةً محقَّقةً في وجوده ، فليس كاللُّغة نسَبٌ للعاطفة ، والفكر ، حتَّى إنَّ أبناءَ الأبِ الواحدِ لو اختلفت ألسنتهم ، فنشأ منهم ناشئٌ على لغةٍ ، ونشأ الثَّاني على أخرى ، والثَّالث على لغةٍ ثالثةٍ ؛ لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء .

وما ذلَّتْ لغةُ شعبٍ إلا ذلَّ ، ولا انحطَّتْ إلا كان أمرُه في ذهاب وإدبار ، ومن هذا يَعرِضُ الأجنبيُّ المستعمِرُ لغتَه فرضاً على الأمَّة المستعمَرة ، ويركبهم بها ، ويُشعِرُهم عظمته فيها ، ويَسْتَلْحِقُهمْ من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحدٍ : أمَّا الأوَّلُ ؛ فحبْسُ لغتهم في لغته سِجناً مؤبّداً ، وأمَّا الثَّاني ؛ فالحكم

على ماضيهم بالقتل محواً ، ونسياناً ؛ وأمَّا الثَّالثُ فتقييدُ مستقبلهم في الأغلال الَّتي يصنعُها ؛ فأمْرُهم من بعدِها لأمره تَبَع .

والذين يتعلَّقون اللغاتِ الأجنبيَّة ينزِعون إلى أهلها بطبيعة هذا التَّعلُّق ، إن لم تكن عصبيَّتهم للغتهم قويَّةً مستحكمةً من قِبل الدِّين ، أو القوميَّة ؛ فتراهم إذا وهَنَتْ فيهم هذه العصبيَّةُ يخجلون من قوميتهم ، ويتبرَّؤُون من سَلفهم ، وينسلخون من تاريخهم ، وتقومُ بأنفسهم الكراهة للغتهم ، وآداب لغتهم ، ولقومهم ، وأشياءِ قومهم ؛ فلا يستطيع وطنهم أن يُوحيَ إليهم أسرار روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابةً في الطبيعة ؛ وينقادون بالحبِّ لغيره ، فيتجاوزونه وهم فيه ، ويَرثون دماءَهم من أهلهم ، ثمَّ تكونُ العواطفُ في هذه الدِّماء للأجنبيِّ ، ومن ثمَّ تصْبح عندهم قيمةُ الأشياء بمصدرها ، لا بنفسها ، وبالخيالِ المتوهَّم فيها ، لا بالحقيقة الَّتي تحملها ؛ فيكونُ شيء الأجنبيِّ في مذهبهم أجملَ ، وأثمنَ ، لأنَّ إليه الميل ، وفيه الإكبارُ ، والإعظام ؛ وقد يكون الوطنيُّ مثله ، أو أجملَ منه ، بَيدَ أنَّه فقد الميل ، فضعفت صِلته بالنَّفس ، فعادت كلُّ مميِّزاتِه فضعفت لا تميِّزه .

وأعجب من هذا في أمرهم : أنَّ أشياءَ الأجنبيِّ لا تحمِلُ معانيها السَّاحرة في نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءَها الأجنبيَّة ، فإنْ سُمِّي الأجنبيُّ بلغتهم القوميَّةِ ، نَقصَ معناه عندهم ، وتصاغرَ ، وظهرت فيه ذِلَّةٌ . . . وما ذاك إلا صَغرُ نفوسهم ، وذِلَّتُها ؛ إذ لا يَنتخُون لقوميَّتهم ، فلا يُلهِمهُم الحرف من لغتهم ما يلهمهم الحرفُ الأجنبيُّ .

والشَّرقُ مبتلىً بهذه العلَّة ، ومنها جاءت مشاكله ، أو أكثرها ؛ وليس في العالم أمَّةٌ عزيزةُ الجانبِ تقدِّم لغةَ غيرها على نفسها ، وبهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبيَّةِ موضعاً إلا من وراء حُدود الأشياء الوطنيَّة ؛ ولو أخذنا نحن الشَّرقيِّين بهذا ، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا .

فاللُّغات تتنازعُ القوميَّةَ ، ولَهِيَ ـ والله ـ احتلالٌ عقليٌّ في الشُّعوب ؛ الَّتي لحقتْ عصبيَّتها ؛ وإذا هانت اللُّغة القوميَّة على أهلها ، وأثَّرت اللُّغةُ الأجنبيَّةُ في الخُلُقِ القوميِّ ما يؤثِّر الجوُّ الأجنبيُّ في الجسم ؛ الَّذي انتقل إليه ، وأقام فيه . أمَّا إذا قويت العصبيَّة ، وعزَّت اللُّغة ، وثارت لها الحمِيَّة ؛ فلن تكون اللُّغاتُ الأجنبيَّةُ إلا خادمةً يُرتفقُ بها ، يرجع شِبرُ الأجنبيِّ شبراً ، لا متراً . . . وتكون تلك

العصبيَّة اللُّغة القوميَّة مادَّةً ، وعوناً لكلِّ ما هو قوميٌّ ، فيُصبح كلُّ شيءٍ أجنبيٍّ قد خضع لقوَّةٍ قاهرةٍ غالبةٍ ، هي قوَّة الإيمان بالمجد الوطنيِّ ، واستقلالِ الوطن ؛ ومتى تعَيَّنَ الأَوَّلُ أنَّه الأوَّلُ ، فكلُّ قوى الوجود لا تجعلُ الذي بعده شيئاً إلا أنَّه الثَّاني .

* * *

والدِّين هو حقيقة الخلقِ الاجتماعيِّ في الأمَّة ، وهو الذي يجعلُ القلوب كلَّها طبقةً واحدةً على اختلافِ المظاهر الاجتماعية عاليةً ، ونازلةً ، وما بينهما ، فهو بذلك الضَّمير القانونيُّ للشَّعب ، وبه لا بغيره ثبات الأمَّة على فضائلها النَّفسيَّة ، وفيه لا في سواه معنى إنسانيَّة القلب .

ولهذا كان الدِّين من أقوى الوسائل التَّي يُعوَّل عليها في إيقاظِ ضمير الأمَّة ، وتنبيه روحها ، واهتياج خَيالها ؛ إذ فيه أعظم السُّلطة ؛ الَّتي لها وحدها قوَّة الغلبة على المادِّيَّات ؛ فسلطان الدِّين هو سلطان كلِّ فردٍ على ذاته ، وطبيعته ؛ ومتى قوي هذا السُّلطان في الشَّعب ، كان حَمِيّاً أبِيّاً ، لا ترغمه قُوَّةٌ ، ولا يعنُو للقهر .

ولولا التديُّن بالشَّريعة ، لما استقامت الطَّاعة للقانون في النَّفس ، ولولا الطَّاعة النَّفسيَّة للقوانين ؛ لما انتظمت أمَّة ؛ فليس عمل الدِّين إلا تحديدَ مكانِ الحيّ في فضائل الحياة ، وتعيينَ تبعَتِه في حقوقها ، وواجباتها ، وجعْلَ ذلك كلِّه نظاماً مستقرّاً فيه ، لا يتغيَّر ، ودَفْع الإنسان بهذا النِّظام نحو الأكمل ، ودائماً نحو الأكمل .

وكلُّ أمَّةٍ ضعف الدِّين فيها اختلفت هندستُها الاجتماعيَّة وماجَ بعضها في بعض ، فإنَّ من دقيق الحكمة في هذا الدِّين : أنَّه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غايةً في هذه الأرض ، وذلك لتنتظم الغايات الأرضيَّة في النَّاس ، فلا يأكل بعضهم بعضاً ؛ فيغتني الغنيُّ ، وهو آمنٌ ، ويفتقر الفقير ، وهو قانعٌ ، ويكون ثواب الأعلى في أن يعودَ على الأسفل بالمبرَّة ، وثواب الأسفل في أن يصبرَ على ترك الأعلى في منزلته ؛ ثمَّ ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلـٰهيَّة الواحدة ؛ التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغُر عنها الصَّغير ؛ وهي الحقُّ ، والصَّلاح ، والخيرُ ، والتَّعاونُ على البرِّ ، والتَّقوى .

وما دام عملُ الدِّين هو تكوين الخلق الثابت ، الدَّائبِ في عمله ، المعتزِّ

بقوَّته ، المطمئنِّ إلى صبره ، النَّافر من الضَّعف ، الأبيِّ على الذُّلِّ ، الكافر بالاستعباد ، المؤمن بالموتِ في المدافعةِ عن حوزته ، المجزيِّ بتساميه ، وبَذْلِه ، وعطفه ، وإيثاره ، ومُفاداتِه ، والعامِلِ في مصلحة الجماعة ، المقيَّد في منافعه بواجباته نحو النَّاس ـ ما دام عمل الدِّين هو تكوينُ هذا الخلق ـ فيكون الدِّين في حقيقته هو جَعْلُ الحِسِّ بالشَّريعة أقوى من الحسِّ بالمادَّة ، ولعمري ! ما يجدُ الاستقلال قوَّةً هي أقوى له ، وأردُّ عليه من هذا المعنى ؛ إذ تقرَّر في نفوس الأمَّة ، وانطبعت عليه .

وهذه الأمَّةُ الدِّينيَّة التي يكون واجبها أن تشرُف ، وتسُود ، وتعتزَّ ، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ، ولا تخضع ، ولا تذلَّ .

وبتلك الأصول العظيمة ؛ الَّتي يُنشِئُها الدِّين الصَّحيح القويُّ في النَّفس ، يتهيَّأُ النَّجاح السِّياسيُّ للشَّعب المحافظ عليه ، المنتصر له ؛ إذ يكون من الخِلال الطَّبيعيَّة في زعمائه ، ورِجاله الثبات على النَّزعة السِّياسيَّة ، والصَّلابة في الحقِّ ، والإيمان بمجد العمل ، وتغليب ذلك على الأحوال المادِّيَّة ؛ الَّتي تعرض ذا الرأي لتفتِنَه عن رأيه ومذهبه : من مالٍ ، أو جاهٍ ، أو منصبٍ ، أو موافقةِ الهوى ، أو خشية النِّقمة ، أو خوف الوعيد ، إلى غيرها من كلِّ ما يستميلُ به الباطل ، أو يُرْهِب به الظُّلم .

ولا يذهبنَّ عنك : أنَّ الرَّجلَ المؤمنَ القويَّ الإيمان ، الممتلىءَ ثقةً ، ويقيناً ووفاءً ، وصدقاً ، وعزماً ، وإصراراً على فضيلته ، وثباتاً على ما يلقى في سبيلها ، لا يكون رجلاً كالنَّاس ، بل هو رجل الاستقلالِ الذي واجبه جزءٌ من طبيعته ، وغايته السامية لا تنفصل عنه ، هو رجل صِدْقِ المبدأ ، وصدقِ الكلمة ، وصدقِ الأمل ، وصِدْق النَّزعة ؛ وهو الرَّجل ؛ الذي ينفجر في التَّاريخ كلَّما احتاجت الحياة الوطنيَّة إلى إطلاق قنابلها للنَّصر .

* * *

والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر ، وهي وحْدَةٌ تاريخيَّةٌ في الشَّعب ، تجمعُه كما يجمعُه الأصل الواحد ، ثم هي كالدِّين في قيامها على أساسٍ أدبيٍّ في النَّفس ، وفي اشتمالها على التَّحريم ، والتَّحليل ، وتكاد عادات الشَّعب تكون ديناً ضيِّقاً خاصّاً به ، يخضره في قبيله ، ووطنه ، ويحقِّق في أفراده الألفة ،

والتشابك ، ويأخذهم جميعاً بمذهبٍ واحدٍ : هو إجلال الماضي .

وإجلالُ الماضي في شعبٍ تاريخيٍّ هو الوسيلةُ الرُّوحيَّة التي يستوحي بها الشَّعب أبطاله ، وفلاسفته ، وعلماءَه ، وأدباءَه ، وأهل الفنِّ منه ، فيُوحون إليه وحيَ عظمائهم ؛ الَّتي لم يغلبها الموت ، وبهذا تكون صُوَرُهم العظيمة حيَّةً في تاريخه ، وحيَّةً في آماله ، وأعصابه .

والعادات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسيّاً حقيقيّاً ، حتَّى ليشعر الإنسان أنَّ لأرضِه أمومة الأمِّ ؛ الَّتي ولدَتْه ، ولقومه أبوَّة الأب ، الذي جاء به إلى الحياة ، ليس يعرف هذا إلا من اغترب عن وطنه ، وخالط غير قومه ، واستوْحش من غير عاداته ؛ فهناك ، هناك يُثبت الوطن نفسَه بعظمةٍ وجبروتٍ ، وكأنَّه وحده هو الدُّنيا .

وهذه الطَّبيعة الناشئة في النَّفس من أثر العادات هي الَّتي تُنبِّه في الوطن رُوح التميُّز عن الأجنبيِّ ، وتوحش نفسه منه كأنَّها حاسَّة الأرض تنبِّه أهلها ، وتُنذرُهم الخطر .

ومتى صدقت الوطنيَّة في النَّفس أقرَّت كلَّ شيءٍ أجنبيٍّ في حقيقته الأجنبيَّة ؛ فكان هذا هو أوَّل مظاهر الاستقلال ، وكان أقوى الذَّرائع إلى المجد الوطنيِّ .

* * *

وباللُّغة ، والدِّين ، والعادات ينحصر الشَّعب في ذاته السَّامية بخصائصها ، ومقوِّماتِها ، فلا يَسْهل انتزاعُه منها ، ولا انتساقه من تاريخه ، وإذ أُلجِئَ إلى حالٍ من القهر ؛ لم ينخذِل ، ولم يتضعضع ، واستمرَّ يعمل ما تعمله الشَّوكة الحادَّة : إن لم تُترك لنفسها ، لم تعطِ من نفسها إلا الوَخْزَ .

* * *